

المحاضرة الأولى: علم الأسلوب النشأة والتطور.

1- الأسس والمنطلقات:

يجمع علماء النقد واللغة على أن نشأة علم الأسلوب قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدرس اللساني الذي أرسى قواعده فارديناند دو سوسير (1857م - 1913م) مع مطلع القرن العشرين.

إن مجال الدراسة اللغوية عند دوسوسير يحتوي العديد من التنظيرات منها ما عُدّت منطلقات أساسية مهدت لنشأة علم الأسلوب وهي:

1- التمييز بين الدراسة التاريخية والدراسة التزامنية للغة:

يرى دوسوسير أن اللغة يمكن أن تدرس بمنهجين: المنهج التاريخي (التعاقبي)، والمنهج الوصفي (التزامني)، فالأول يتتبع الظواهر اللغوية وما يحدث لها من تغيير في مراحل زمنية متعاقبة، والثاني يدرس اللغة في مرحلة معينة من الزمان بوصف حالتها الراهنة، ولكل دراسة وظائفها المحددة والخاصة بها "فالدراسة التزامنية مثلاً لا تسأل إلا عن (ماذا؟ وكيف؟) في بنية اللغة، فتركز على سؤالين مهمين هما (مما تتكوّن؟ وكيف تتكوّن؟)، في الوقت الذي يلاحظ فيه أن السؤال عن (لماذا؟ ومن أين؟) من مسؤولية الدراسة التطورية"¹، من هنا فإن علم اللغة يتبنى المنهج الآني الاستقرائي، وينظر إلى اللغة على أنها كائن يخضع للتطورات، لذلك لا بد من تحديد زمن معين ولغة معينة وجعلها موضوع الدراسة.

ب- التمييز بين اللغة والكلام:

اقترح دوسوسير عدداً من التقسيمات لدراسة اللغة دراسة وصفية، تقوم على التمييز بين ثنائيات ضدية تقابل بين: (التزامن والتعاقب)، (المدلول والمعلوم)، (اللغة والكلام)،

¹ - فيلي سانديرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمد جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط 1، 2003م، ص 101 .

"ولعل أهم مبدأ أصولي يستند إليه تحديد حقل الأسلوبية يرتكز أساسا على ثنائية تكاملية... تتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة اللسانية إلى واقعين أو لنقل ظاهرتين وجوديتين: ظاهرة اللغة، وظاهرة العبارة (أو الكلام)" **عبد السلام المسدي**.

وقد عدّ دوسوسير اللغة نظام علامات فقال: "اللغة نظام من الإشارات"²، وأن الفصل بينها وبين الكلام يعني "الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو فردي، الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي إلى درجة ما"³.

من هنا يمكن أن نجمل أهم الفروق بين اللغة والكلام فيما يأتي:

- 1- اللغة واقعة اجتماعية: أي أنها "مجموعة من العلامات المخترنة في حقل الجماعة، هذه العلامات والقواعد المخترنة في الذهن لا نطق لها، لأن محورها جمعي، وهي تشبه -كما يرى دوسوسير- القاموس الذي توجد فيه الكلمات صامته غير منطوقة، صالحة للنطق والاستعمال"⁴، وهي بهذا يمكن أن تدرس دراسة علمية، وذلك لإمكانية إخضاع ظواهرها للتصنيفات العلمية، والوصول إلى العلاقات الداخلية لبنيتها أو شفرتها.
- 2- الكلام إنجاز فردي للغة: بمعنى أنه "نشاط إنساني واقعي، وهو تحقيق فعلي حي لتلك الصورة المخترنة في ذهن الجماعة"⁵.

وبهذا يكون الكلام ظاهرة متشعبة متنافرة، ومجاله أرحب وأوسع من مجال اللغة، ولذلك لا يمكن إخضاعه للدراسة العلمية المنهجية، وبذلك تبقى اللغة الموضوع الوحيد للسانيات، و"من هذا التمييز بين اللغة كظاهرة مجردة، توجد ضمنا في كل خطاب بشري، ولا توجد أبدا هيكلًا ماديًا ملموسًا، والكلام باعتباره الظاهرة المجسدة للغة... يمكن تحديد المجال الذي تعمل فيه الأسلوبية، إذ أنها لا يمكن أن تتصل إلا بالكلام، وهو الحيز المادي الملموس الذي يأخذ أشكالًا مختلفة قد تكون عبارة، أو خطابًا أو رسالة، أو قصيدة شعر" **محمد عبد المطلب**.

²- فرديناند دو سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يونيل يوسف عزيز، مراجعة: يوسف المصلي، دار الآفاق العربية، الأعظمية، بغداد، دط، دت، ص 34.

³- المصدر نفسه: ص 32.

⁴- أحمد كشك: اللغوى الكلام، أبحاث في التداخل والتقارب، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت، ص 120.

⁵- المرجع نفسه: ص 10.

2- علم الأسلوب: التأسيس والتطور:

يجمع معظم الدارسين على أن علم الأسلوب ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالدراسات اللغوية التي قام بها دوسوسير، واستثمر مقولة التفريق بين اللغة والكلام، جاعلاً من الكلام أداة له، إذ ركز على طريقة ممارسة اللغة بتلمسه الفروق الفردية، وتجلياتها المتفاوتة من متكلم إلى آخر، ومن هذا المنطلق "فإن الأسلوبية تركز بشكل كثيف ومباشر على عملية الإبلاغ والإفهام، بالإضافة إلى انتقالها الأساسي والجوهرية إلى التأثير في المتلقي (...)" ولذلك فإن الأسلوبية تسعى بكل تميز لدراسة الكلام على أنه نشاط ذاتي في استعمال اللغة".

إلا أن التباين الذي يمكن أن نشير إليه يكمن في تصورات الدارسين عن التحولات و التطورات التي مر بها علم الأسلوب، فنظروا إليها من زوايا مختلفة إلا أننا نحاول أن نجعلها فيما سيأتي :

تشير معظم الآراء إلى أن علم الأسلوب تأسس على يد شارل بالي chales bally (1865م - 1947م) الذي أوضح معالم هذا العلم في كتابيه (تحولات في الأسلوبية الفرنسية) الذي أصدره سنة 1902م، والثاني (المجمل في الأسلوبية) سنة 1905 م، وقد اعتمد كثيراً على آراء أستاذه دو سوسير خاصة نظريته إلى اللغة "ودراستها كبناء متكامل في فترة زمنية محددة، قبل دراسة التطورات الجزئية التي تطرأ على نطق حرف من الحروف مثلاً فتؤدي إلى التغيير في بعض القواعد أو بعض المفردات"، إلا أن شارل بالي لم يكتف بالدراسة الأفقية للغة وتجاوزها إلى التأثيرات الوجدانية التي تحدثها الوقائع التعبيرية، باعتبار أن هذه الوقائع خاضعة لمواقف مختلفة ومتباينة باختلاف وتباين فئات المتكلمين "فاللغة عند بالي تتكون من نظام لأدوات التعبير التي تتكفل بإبراز الجانب الفكري من الإنسان، وليست مهمة اللغة مقصورة على الناحية الفكرية وحدها، بل إنها تعمل أيضاً على نقل الإحساس والعاطفة"، وبهذا فإن الدرس الأسلوبي عند بالي يحدده أمران هما :

2- يضع فيه بالي الأسلوبية خارج الدرس اللساني للنص الأدبي .

إن هذه الالتفاتة من بالي "لم تتجاوز حدود اللغة العامة والشائعة، ولم ينقلها إلى ميدان دراسة الأسلوب، وبذلك ظلت أسلوبية بالي هي أسلوبية اللغة، وليست أسلوبية الأدب"، بمعنى أن بالي قد جعل الجانب التأثيري ظاهرة قائمة في اللغة وليست في الاستعمال اللغوي، وبذلك ابتعدت أسلوبية بالي عن دراسة النص الأدبي بمعايير أسلوبية " ولم يدخل بالي الأدب في دراسته، ورأى أن علم الأسلوب يجب أن لا يبحث في كيفية استخدام الأدباء لتلك الدلالات المضافة (أو التأثيرات الوجدانية)... والدارس الأسلوبي - إذن في رأي بالي - دارس لغوي محض يدرس الخامات اللغوية من حيث دلالاتها الإضافية، مهما تكن طبيعة النص الذي يدرسه من الأدب كان أو من العلم، أو من الإدارة، أو من شؤون الحياة العادية" .

وظل الجانب الأدبي للنصوص مبعدا من الدراسة الأسلوبية إلى أن جاء ليو سبيتزر leo spitzer (1887م - 1960م) الذي رأى بأنه يمكن الإفادة من علم الأسلوب في دراسة النصوص الأدبية، فشرع للتمهيد إلى أسلوبية أدبية منذ سنة 1911م.

انطلق ليو سبيتزر من فرضية مؤداها "أن هناك علاقة متبادلة بين الخواص الأسلوبية للنص والجو النفسي لمؤلفه"، وقد عُرِفَ هذا الاتجاه بالنقد الأسلوبي كما عرف أيضا بالأسلوبية الأدبية "وقد تكونت في جو آخر، وتحت تأثيرات مختلفة، فهي ترجع في أصلها إلى علم اللغة المثالي عند كارل فوسلر Karl vossler، وبشكل غير مباشر في التفكير الجمالي لدى بنيديتو كروتشييه Benedetto croce، وفي كتاب "الجمال كعلم للتعبير وعلم اللغة العام".

تلك الرؤية التي لا تفرق بين اللغة والشعر، وجعلهما متطابقين مما يستلزم دراسة الشعر دراسة اللغة "ومن ثم فاللغة عنده [كارل فوسلر] فن وكل فرد يعبر عن انطباع روحي إنما يخلق بذاته وينتج صيغا لغوية، وكل مبدع من مبدعاته اللغوية له قيمته الفنية التي يمكن أن تكون قيمة تكاملية حقيقية وتامة، أو شظية من قيمة قد يشكل عملا ممتازا أو يكون هراء".

كما أفادت هذه المدرسة أيضا من آراء برغسون وفرويد خاصة في "الاعتناء بالجوانب السيكلولوجية للمبدع، وهو جانب مهم جدا في دراسة العالم النفسي للمبدع، وقد تجلّى هذا الأمر في بناء صلة وثيقة بين علم اللغة والأدب من خلال العناصر النفسية التي تتمثل انعكاساتها في عمل الأديب".

ومن الوجهة الأولى المثالية والوجهة الثانية النفسية توصل سببنا إلى نتيجتين منهجيتين هامتين هما:

1- التحليل الأسلوبي يتخذ العمل الأدبي نقطة انطلاق، بحيث يكشف عن الطابع الجوهرى للعمل متميزا بذلك -إلى أبعد الحدود- عن التاريخ الأدبي العام **والوطني**، فهذا النوع من التحليل يختار -كنقطة بدأ- إحدى التفصيلات اللغوية أيا كانت ومهما كانت خارجية أو سطحية، بشرط أن تتداعى إليها -في شكل مترابط- تفصيلات أخرى تسمح للناقد بحركة نحو مركز العمل الأدبي ساعيا إلى بلوغ تشكيله الداخلي، وتبدأ هذه الحركة الاستقصائية بنقطة بدأ حدسية.

2- إن توجه هذه الأسلوبية توجهها سيكلولوجيا يتقصى معرفة الخبرة الخاصة واهتزازات الإحساس، واستعداد النفس التي تنعكس في الكلمات وفي الصور وفي الأبنية النحوية التركيبية لأي نص أدبي⁶.

⁶- ينظر: سليمان العطار (الأسلوبية علم وتاريخ) سبق ذكره، ص 136.

إلا أن أسلوبية ليو سبيتزر كثيرا ما نعتت بالانطباعية "فكل قواعده العلمية منها والنظرية قد أغرقت في ذاتية التحليل، وقالت بنسبية التعليل وكفرت بعلمانية البحث الأسلوبية".

وفي ظل هذا الجدل بين التيار الوضعي بزعامة "شارل بالي" والتيار المثالي بزيادة "ليوسبيتزر"، بزغت اجتهادات ماروزو منذ سنة 1941م وحولت إخراج الدراسات الأسلوبية من أزمة التخطب بين موضوعية اللسانيات ونسبية الاستقراءات "فنادى بحق الأسلوبية في شرعية الوجود ضمن أفنان الشجرة اللسانية العامة".

وفي سنة 1960م حاول "رومان جاكسون" استثمار التيارين الوضعي والمثالي، والتوفيق بينهما، فقام بمصاهرة بين اللسانيات والصناعة الأدبية، وبشر حينها "بسلامة بناء الجسر بين إقليمين هما "اللغة والأدب".

وكان نتيجة هذا المخاض الذي عرفته نشأة هذا العلم أن تبلور تيارا سنة 1969م بقيادة الألماني "ستيفان أولمان" Stephen ullmann يبارك استقرار الأسلوبية علما لسانيا نقديا.

المحاضرة الثانية: الأسلوب والأسلوبية

أولاً- مفهوم الأسلوب:

لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور: " ويقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد، فهو أسلوب، قال: والأسلوب الطريق والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه، والأسلوب (بالضم): الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه"⁷.

وجاء في تاج العروس أن الأسلوب (بالضم) :كل طريق ممتد...والأسلوب الوجه والمذهب، قال هم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه طريقته...وكلامه على أساليب حسنة.

وبالنظر إلى المفهوم المعجمي لكلمة "أسلوب" نخلص إلى أنه ذو بعدين :

-بعد مادي: الذي يمكن أن نلمسه في تحديد مفهوم الكلمة من حيث ارتبطت في مدلولها بمعنى الطريق الممتد أو السطر من النخيل .

-بعد فني: الذي يتمثل في ربطها بأساليب القول وأفانينه .

وتكاد تجمع المعاجم العربية على أن الأسلوب يعني الطريقة والوجه والفن، أما في اللغة الفرنسية، فالمادة اللغوية لكلمة "Style" تتعدد معانيها باعتبار سياقاتها، فمنها "الطريقة

⁷ - ابن منظور: مصدر سبق ذكره، ج1، مادة سلب، ص473.

الخاصة في الكتابة والتعبير عن الأفكار، أو منهج تعبير منتسب لمفكر أو كاتب أو مبدع متميز في رؤاه ومنهجه"⁸، ومنها أنه " استخدام إرادي وواعي لقيم المؤلف"⁹.

وإذا يمينا بحثنا شطر المفهوم الاصطلاحي للأسلوب، وجدنا أن معظم الدارسين سلموا بوجود الأسلوب، إلا أنهم لم يتفقوا على تحديده وتحديد الإطار النظري الذي تتم دراسته في نطاقه، "وليس هناك تعريف واحد للأسلوب يتمتع بالقدرة الكاملة على الإقناع، ولا نظرية يجمع عليها الدارسون في تناوله"¹⁰، حيث نجد بعض الدارسين نظروا للأسلوب من حيث تعلقه بالبات أو المرسل، وبعضهم علق الأسلوب بناصية النص ولغته والإمكانات الاختيارية التي يقدمها، وما يحمل من شحنات، وآخرون اعتبروا الأسلوب متعلق بالمتلقي، وتبعاً لتعدد وجهات النظر تعددت مفاهيم الأسلوب نذكر منها:

- 1- الأسلوب /البات: ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الأسلوب هو موقف يتخذه صاحب النص نحو موضوع معين، فيعبر عنه باللغة التي تتشكل بنظام خاص له طرائقه وكيفياته المحددة فينتج نصا .
- "إن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه وصورة لشخصيته هو...استمده من نفسه وصاغه بلغته وعباراته، دون تقليد سواه من الأدباء لأن كل أسلوب صورة خاصة تبين طريقة تفكيره وكيفية نظره إلى الأشياء، وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته هي أساس تكوين الأسلوب"،

⁸- Petit Larousse, Dictionnaire de français , France , 1987, P 880.

⁹ -Jean Dubois et les autres : Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse , Bordas, 1999 , Paris, P 448 .

¹⁰ - صلاح فضل: الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1419هـ، 1998م، ص 95.

ولعل ذلك راجع إلى أن عملية الإنشاء تبدأ بوجود مثيرات أو انفعالات نابعة من ذات المنشئ، وقد تكون خارجية فرضتها البيئة المحيطة، هذه المحركات تتحول إلى أفكار في ذهن صاحبها، ثم تترجم إلى أقوال وعبارات تشكل أسلوب الباث .

"وهكذا تنتزل نظرية تحديد الأسلوب منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لمخبات شخصية الإنسان ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، وما صرّح به وما ضمّن، فالأسلوب جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقاً".

واستناداً لآراء هذا الاتجاه فإنه من المؤكد أن تتفرد الأساليب تبعاً لاختلاف السمات الذهنية والانفعالية لدى المنشئين "فكل منشئ يمتلك عالماً من المعاني والأخيلة، وطريقة في الصياغة والتعبير مما يجعل له -في النهاية- شخصيته الأسلوبية ذات السمات والملامح المتميزة التي تميزه عن نظرائه من المنشئين".

وعلى هذا الأساس فإن الأسلوب يعبر تعبيراً كاملاً عن شخصية صاحبه، فيعكس أفكاره، ويظهر صفاته الإنسانية التكوينية والإبداعية .

2- الأسلوب/ النص: تستند العملية الإبداعية في تشكيلها إلى ثلاث دعائم، هي المخاطب والمخاطب والخطاب، وتتشكل هذه العناصر وفق قاعدة التكامل.

ويفرق علماء الأسلوب الذين يحددون الأسلوب من زاوية النص بين وضعين للغة هما : وضع معجمي ثابت، ووضع استعمال متغير .

ولعل هذا المبدأ يقودنا إلى ثنائية دوسوسير اللغة Language والكلام Parole حيث يشتمل مستوى اللغة على قواعد نسقية وهي ذات طبيعة مجردة وثابتة، بينما يمثل مستوى الكلام اللغة حيث توظف أو تمارس عند الأشخاص.

ومن هذا المستوى الأخير يمكن أن نميز مستويين من الاستخدام اللغوي هما:

أ-استخدام اتصالي عادي: يؤدي وظيفة نفعية.

2- استخدام اتصالي جمالي: يؤدي وظيفة نفعية إمتاعية، كما هو موضح في الخطاطة الآتية:

لغة

البنية اللغوية استخدام اتصالي عادي = وظيفة نفعية.

كلام

استخدام اتصالي جمالي = وظيفة نفعية إمتاعية.

ومن المؤكد أن "ثمة فرق بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي، فأولهما يعتمد على المباشرة... ويهدف إلى التبادل النفعي، ويتسم هذا المستوى من الاستخدام بمحدودية معجمه، إذ ليس في ألفاظه الجديد... أما الخطاب الأدبي فيصدر عن ملكة عند منشئه، ويسعى إلى أن يمس إحساس متلقيه مسًا، سامعا كان أم قارئًا، كما يتميز أن ألفاظه مختارة ومفرداته منتقاة ومعانيه مبتكرة، قد يفهمه متلقيه دون عناء، وقد يحتاج لفهمه ولبيان ما يراد به إلى إمعان الفكر وإعمال العقل".

وبهذا فإن أصحاب هذا الاتجاه ينظرون للأسلوب على أنه نوع من الخطاب الفني، يتشكل من وحدات مختلفة نحوية وصرفية ومعجمية، وشرط فنيته أن يخرج هذا التشكيل عن المألوف والنمطية، وذلك "بأن يبتكر صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وُضع له...".

3- الأسلوب / المتلقي:

يعد الأسلوب عند أصحاب هذا التيار انزياحا (اختاري)، ويكون هذا الانزياح مصحوبا بشحنات ناجمة عن قوة الضغط الممارس من طرف اللغة، من أجل تطوير ذاتها، يقول ريفاتير في تعريفه للأسلوب: "هو ذلك الإبراز mis en relief الذي

يفرض على انتباه القارئ بعض عناصر السلسلة التعبيرية¹¹. ويضيف فيقول: "أعني بالأسلوب الأدبي كل شكل ثابت permanent فردي ذي مقصدية أدبية"¹²، والشكل الثابت عنده يعني "ثبات الخصائص الشكلية التي تميز كل عمل أدبي"¹³، وأما المقصدية فهي "لا تعني بالضرورة تلك الحمولة الدلالية، بل كل مقصدية تجد في النص بعض ما يبررها على مستوى وحداته البانية، أي تلك الحمولة الجمالية"¹⁵.

من هذا التعريف ندرك الأهمية التي أولاها ريفاتير للقارئ¹⁶ وجعله عنصرا مشاركا في عملية التسنين، وأساسيا في عملية التفكير، وذلك بعدم تجاوز القارئ ذلك البروز لأن في ذلك تشويه لمقصدية النص، والزامية الوقوف عنده لاكتشاف أبعاده الدلالية وسماته الجمالية.

وقد ترتب عن استخدام القارئ النموذجي فكرة أساسية مفادها أن النص رغم طابعه القار شكلا (لغة) إلا أنه متغير من الناحية الأسلوبية، فما استحسنه قارئ في فترة زمنية محددة نتيجة منبهات أسلوبية أثارته، قد يستهجنه قارئ آخر في فترة زمنية لاحقة بسبب عدم قدرة النص الحفاظ على منبهاته الأسلوبية، كما أن النص أيضا قادر على خلق سمات أسلوبية مؤثرة حينما آخر مما يعني أن أسلوب النص متغير ومتحرك على الدوام.

11- المصدر نفسه: ص 21 .

12- ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، ترجمة وتقديم وتعليق: حميد لحميداني، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993، ص 19 .

13- أدبي: ندعو "أدبيا" كل كتابة لها خصائص نصب تذكاري، بمعنى تلك التي تعرض نفسها للانتباه بفضل شكلها، ينظر: نفسه، ص 20.

14- المصدر نفسه: ص 5.

15- المصدر نفسه: ص 5 .

16- القارئ النموذجي: هو "مجموع قراءات"، فلا وجود لقارئ بذاته يسمى كذلك، ولكنه قارئ مجرد يشكل حصيلة لمتوسط ردود أفعال القراء تجاه نص معين، ينظر: يوسف وغليسي: مجلة علامات (مصطلح الانزياح بين ثابت اللغة المعيارية الغربية، ومتغيرات الكلام الأسلوبية العربي)، ج64، مج 16، فبراير 2008م، ص 192 .

ثانيا : مفهوم الأسلوبية :

إن الأسلوبية علم يصعب تقعيده أو تقنينه ومن ثمة تعريفه، وسبب ذلك يكمن في تعدد اتجاهاتها و تنوع مجالاتها "فهي دراسة للغة، وهي أيضا دراسة للكائن المتحول باللغة، وهي كذلك دراسة للعمل الإبداعي، ودراسة لعملها الذاتي المبدع للعمل الإبداعي".

ومع هذا فإن معظم الدارسين يتفقون على أن الأسلوبية في أبسط معانيها هي :الدراسة العلمية للأسلوب تهدف إلى الكشف عن خصائصه الجمالية، وبنياته الفنية، تتكئ على جملة من الأدوات الإجرائية لرصد الظواهر الأسلوبية التي تؤدي إلى مقصدية ذات حمولة جمالية.

ومن جملة التعريفات التي حاولت أن تضبط مفهوم الأسلوبية ما أتى به عبد السلام المسدي في قوله:"فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني وما تولد عنه في مختلف اللغات الفرعية، أو انطلقنا من المصطلح الذي استقر ترجمة له في العربية وقفنا على دال مركب جذره "أسلوب" Style ولاحقته "ية"ique، وخصائص الأصل تقابل انطلاقا أبعاد اللاحقة، فالأسلوب -وسنعود إليه - ذو مدلول إنساني ذاتي، وبالتالي نسبي، واللاحقة تختص -فيما تختص به- بالبعد العلماني العقلي، وبالتالي الموضوعي، ويمكن في كلتا الحالتين تفكيك الدال الاصطلاحي إلى مدلوليه بما يطابق عبارة، علم الأسلوب Science du style لذلك تعرّف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب" .

وهذا يعني أن الأسلوب موضوع الأسلوبية، فتعتمد إلى دراسة خصائصه الإنسانية (ذاتية) دراسة علمية، بهدف كشف مميزاته الجمالية بطريقة موضوعية .

ولا يبتعد نور الدين السد في تعريفه للأسلوبية عن رؤية عبد السلام المسدي بقوله : "علم يهدف إلى دراسة الأسلوب في الخطاب الأدبي، وتحديد كيفية تشكيله، وإبراز العلاقات التركيبية لعناصره اللغوية".

تتفق هذه التعريفات في البعد اللساني للأسلوبية، إلا أن هناك من يعرفها انطلاقاً من بعدها الجمالي، على غرار جاكوبسون الذي عرف الأسلوبية "بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً".

ومن هذه المفاهيم التي أوردناها عن الأسلوبية نخلص إلى أنها علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، فهي تدرس احتمالات الممارسات اللغوية مميّزة بين تلك التي تحمل أثراً فنياً وجماليًا عن غيرها، أو هي مجال من مجالات البحث المعاصر التي تدرس النصوص الأدبية انطلاقاً من تفكيك ظواهرها اللغوية والبلاغية باستقراء منهج علمي يهدف إلى إبراز السمات الجمالية بطريقة موضوعية.

علاقة الأسلوب بالأسلوبية:

1- العلاقة اللسانية:

هناك من يضع حدوداً لسانية بين المصطلحين، فيكون الأسلوب غير الأسلوبية "وكما أن الأسلوب أساليب، فكذا الأسلوبية أسلوبيات، وإذا كان الأول ظاهرة أصيلة وعامة أكثر مما هي عامة، وإذا كان الأول أشد صلة باللغة وتقنياتها وبهاجتها وزخارفها وقواعده وبلاغتها... فإن الثانية ألصق بالكلام وأدائه"¹⁷.

ومن هذا المنظور اللساني فإن الأسلوب مرتبط بالكفاءة اللغوية، في حين أن الأسلوبية وثيقة الصلة بالأداء الفردي الانفعالي.

ب - العلاقة الوظيفية:

إذا كان الأسلوب أسبق ظهوراً من الأسلوبية، فإن ذلك لم يعد مانعاً من وجود علاقة متلازمة بينهما، وتكمن هذه العلاقة في كون الأسلوب موضوعاً للأسلوبية.

¹⁷-عبد الجليل مرتاض: اللسانيات الأسلوبية، دار هومة، الجزائر، دط، دت، ص 105.

"فالأُسْلُوبِيَّةُ هِيَ "عِلْمٌ" كَمَا يَرَاهَا بَعْضُ الدَّارِسِينَ الْغَرْبِيِّينَ، أَوْ هِيَ نَقْدٌ أَوْ "فَلَسْفَةٌ" أَوْ "نَهْجٌ"
كَمَا يَرَاهَا آخَرُونَ تَقْتَرِنَ دَائِمًا بِالْأُسْلُوبِ، فَحَيْثُمَا وُجِدَ أَحَدُهُمَا وُجِدَ الْآخَرُ، فَإِنَّ الْأُسْلُوبَ
وَالْأُسْلُوبِيَّةَ Style et stylistique متلازمان .

المحاضرة الثالثة :علم الأسلوب والدلالة:

1- مفهوم الدلالة:

أ-لغة:

ب-اصطلاحاً: عرفت الدلالة بأنها : "كون الشيء بحالة يلزم العلمُ به العلمُ بشيء آخر، والأول الدال، والثاني المدلول"¹⁸. فالدلالة تعفني حالة اقتران الدال بالمدلول، فقد استقر في المفهوم اللغوي الحديث أن الدلالة: "هي العلاقة بين الدال (اللفظ) والمدلول (المعنى)".¹⁹

2- الوحدة الدلالية: اختلف علماء اللغة في تعريف الوحدة الدلالية "فمنهم من قال إنها الوحدة الصغرى للمعنى، ومنهم من قال إنها: تجمع من الملامح التمييزية، ومنهم من قال إنها: أي امتداد من الكلام يعكس تبايناً دلالياً" وتقسم إلى أقسام أربعة:

الجملة

الكلمة +

الوحدة الدلالية

المورفيم -

أصغر من المرفيم (الصوت المفرد)

1- أصغر من المورفيم : نعني به دلالة الحركات الإعرابية من فتح وضم وجر، مثل دلالة الضمة على المتكلم في قرأتُ، ودلالة الفتحة على المخاطب (قرأتِ)، والكسرة على المخاطبة (قرأتِ).

¹⁸-علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، دط، 1991م، ص 139.

¹⁹-أحمد نعيم الكراعي: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1993م، ص 84 .

ب-المورفيم: نعني به الوحدة الصرفية وقد يكون كلمة أو جزء من كلمة، مثلا: كلمة الجالسون تتكون من المورفيمات الآتية :ال + جلس+ مورفيم اسم الفاعل+ الواو+ النون .

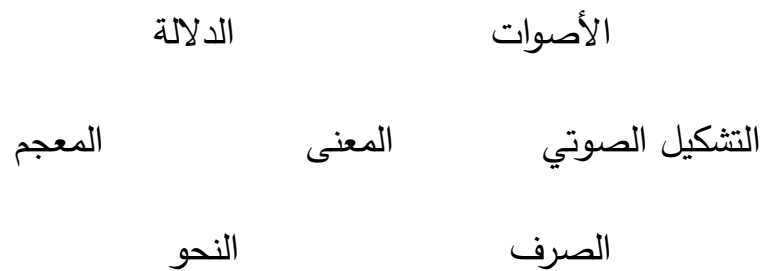
ال: تعني التعريف: جلس: جذر الكلمة، اسم الفاعل: جالس، الواو: تعني الجمع، النون: تقطع الكلمة عن الإضافة، وهكذا أن كلمة جالسون تتكون من خمسة مورفيمات.

ج . الكلمة: هي الوحدة الأعلى من المورفيم "وتعد الكلمة المفردة أهم الوحدات الدلالية لأنها تشكل أهم مستوى أساسي للوحدات الدلالية حتى اعتبرها بعضهم الوحدة الدلالية الصغرى".

د. الجملة تتشكل الجملة من مجموع الكلمات، ويتشكل المعنى انطلاقا من تناسقها، وهناك من يعدها أهم من الكلمة إذ "لا يوجد معنى منفصل للكلمة، وإنما معناها في الجملة التي ترد فيها".

3- علاقة علم الأسلوب بالدلالة :

يعد المعنى بؤرة الدراسات اللغوية "فكل دراسة لغوية لا بد أن تتجه إلى المعنى، فالمعنى هو الهدف المركزي الذي تصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب على النحو المبين في الشكل الآتي :



وهكذا يصبح مبضّعا، ويستقل كل فرع من فروع الدراسات اللغوية ببضعة من هذا المعنى توضحه وتبين عنه، وتعين على كشفه، بقطع النظر عما إذا كانت هذه البضعة مما يتصور فهمه مستقلا عن الهيكل العام للمعنى المركب أم لا" .

وعلم الأسلوب لا يستثنى من هذه الدراسات اللغوية التي تستثمر المعنى، فلكي يحدد الباحث الأسلوبي جمالية الحدث الكلامي، وأدبيته لابد أن يقوم بملاحظات تشمل جوانب تخص المعنى بأقسامه، والدلالة بأنواعها كما سنوضحه في الآتي:

أولاً: المعنى :

وينقسم إلى عدة أقسام:

أ. المعنى الأساسي (التصوري) : وهو المعنى الذي تحمله الوحدة المعجمية حينما ترد مفردة.

ب . المعنى الإضافي (الثانوي): وهو معنى زائد على المعنى الأساسي يدرك من خلال السياق.

ج . المعنى النفسي: وهو الذي يعكس الدلالات النفسية للفرد المتكلم.

د . المعنى الإيحائي: وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتصل بالكلمات ذات القدرة على الإيحاء نظراً لشفافيتها.

هـ . المعنى الأسلوبي: وهو الذي يحدد قيم تعبيرية تخص الثقافة أو الاجتماع .²⁰

وتقسيم المعنى إلى هذه الأقسام "يخضع لمبدأ عام ملخصه أن القيمة الدلالية للوحدة المعجمية لا يمكن اعتبارها قارة، إنما يخضع تحديد تلك القيمة لمجموع استعمالات هذه الصيغة في السياقات المختلفة"²¹.

وعلم الأسلوب باستثماره للمعنى يسعى إلى تناول الحدث الكلامي من خلال بؤرة هي الكلمة بوجهيها الدال والمدلول في إطار العلاقات السياقية.

²⁰- عبد الجليل منقور: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث -دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2001م، ص 68.

²¹- المرجع نفسه: ص 68 .

ثانيا. الدلالة وأنواعها: تساهم الدلالات الصرفية والصوتية والنحوية والسياقية بإجراءات يستعين بها علم الأسلوب لكشف جمالية الحدث الكلامي سنأتي على ذكرها كل على حدة :

1 . الدلالة الصوتية: هي تلك الدلالة التي تستمد من طبيعة الأصوات، فإذا حدث إبدال صوت في كلمة بصوت آخر في كلمة أخرى، أدى ذلك إلى اختلاف معنى كل منهما عن الآخر.

وقد تناول هذا النوع من الدلالات في كتابه الخصائص تحت باب أسماء "الألفاظ أشباه المعاني"، ويمثل لإحلال صوت مكان صوت آخر في كلمة أخرى فيتباينان في المعنى قوله: "خضم، وقضم: فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك، وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم، أي قد يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشطف"²²، وسبب اختلاف دلالة اللفظتين هو اختلاف مخارج الصوتين الخاء والقاف "فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"²³.

ومن مظاهر هذه الدلالة التي يستثمرها علم الأسلوب : النبر والتنغيم .

أ . النبر :يعرفه تمام حسان بقوله : "إنه وضوح نسبي لصوت أو لمقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام، ويكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم، فالضغط بمفرده لا يسمى نبرا، ولكنه يعتبر عاملا من عوامله، ومع هذا فإنه يعتبر أهم هذه العوامل، وربما كان ذلك لأن النبر يعرف بدرجة الضغط على الصوت أكثر مما يعرف بأي شيء آخر".²⁴

²²- عثمان بن عمر بن جني: الخصائص، ج2، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، دت، ص 157.

²³- المصدر نفسه: ض 158 .

²⁴-تمام حسان:مناهج البحث في علم اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دط، 1986م، ص 194 .

ب . التنغيم: التنغيم من الظواهر الصوتية وهو يعني : "التباين بين الارتفاع والانخفاض في درجة الصوت الناتج عن التغير في نسبةذبذبة الوترين الصوتيين التي تحدث نغمة موسيقية، أي أن التنغيم بهذا المفهوم يدل على العنصر المسير في نظام اللغة" ²⁵.

وبذلك فإن التنغيم يساهم في إثراء البعد الجمالي للحدث الكلامي، ويعمل على التفاضل بين الأساليب من مثل التقرير والإخبار والتعجب والإنكار والاستقهام.

2-الدلالة الصرفية: هي الدلالة التي تستمد عن طريق صيغ الألفاظ وأبنيتها، فدراسة التركيب الصرفي لأي لفظ يؤدي إلى بيان المعنى، أو هي "المعاني المستقاة من الأوزان والصيغ المجردة" ²⁶، كتباين الدلالات في صيغ البالغ مثلاً، ويستثمر علم الأسلوب الصيغ الصرفية التي تتميز بالكثافة الدلالية، ومحملة بمقصدية جمالية.

3-الدلالة النحوية : تستمد الدلالة النحوية من ارتباط الكلام ببعضه ببعض بواسطة التركيب الذي تخضع له أية لغة، كالحق الذي يعد قانون التركيب العربي "إذ يحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيباً خاصاً، لو اختلف أصبح من العسير أن يفهم المراد منها" والدلالة النحوية تستمد من هذا النظام، ويأخذ علم الأسلوب من هذا النظام تلك الدلالات الناتجة عن خرق تركيب، والتي تثير بعداً جمالياً.

4- الدلالة السياقية:

وهي الدلالة المستمدة من المقام أو الأحوال التي تحيط بالكلمة أو العبارة، بمعنى أنها تستمد من السياق الاجتماعي و سياق الموقف، "وإن السياق من شأنه أن يحدد المعنى ويخصصه، فإذا دخلت الكلمة في السياق فقد حُلَّ إشكال صفة العموم التي في المعنى المعجمي، واشتمل اللفظ على معناه الأخص ولم يعد في الأمر ما يدعو إلى طلب زيادة لمستزيد".

ومما تقدم نخلص إلى أن النص الأدبي هو نظام لغوي بمستوياته الصرفية والنحوية والصوتية والدلالية، وقد احتلت قضية الدلالة ومجالاتها وأبعادها النفسية

²⁵-سامي عياد حنا وآخرون: معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1987م، ص 67 .

²⁶- حلمي خليل: الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1988م، ص 56 .

والاجتماعية والسياقية جزءا كبيرا من اهتمامات النقاد الأسلوبيين، واستعانوا بكل إمداداتها المعجمية والصرفية والنحوية والسياقية لمطاردة الأثر الجمالي للحدث الكلامي .

علم الأسلوب وعلم التراكيب:

قبل التطرق إلى علاقة علم الأسلوب بعلم التراكيب يجدر بنا أن نقف عند مفهوم النحو بوصفه الموضوع المعيارى لعلم التراكيب، ونردفه بمفهوم علم التراكيب ووظيفته وأهم إمكاناته التي يستثمرها علم الأسلوب :

1- مفهوم النحو: من بين تعريفات النحو ما يأتي: "هو الصورة المجردة المستخلصة من النموذج اللغوي للبنية الوظيفية التي تربط الإشارات اللغوية الحاملة للدلالة، وتصف العلاقات اللغوية الوظيفية وصفا كاملا وصحيا إلى حد ما وذلك في صيغة قواعد الاستعمال"²⁷. أو هو "العلم الذي يقدم لدارس اللغة الصيغ والتراكيب التي تشتمل عليها إمكانات الاستعمال اللغوي الصحيح، فهو يتناول تقسيم الكلمات، وحالات تغيرها الإعرابي بحسب مواقعها، أو لزومها حالا واحدة، ويقدم صور الجملة المستعملة من اسمية وفعلية، وما يطرأ على كل منها من زيادات أو نقص أو تبديل"²⁸.

فالنحو بوصفه تنظيما للقوانين أو تحقيقا لها ضمن شروط محددة يحمل دائما طابعا شخسيا، وهذا الطابع الشخصي هو الذي يمهد لامتداد جسور الوصال بين علم التراكيب وعلم الأسلوب، كما أن النحو صنف من أصناف الشكل form ، وأن الشكل "هو الموضوع المناسب للدرس في علم الأسلوب وعلم اللغة"²⁹ كما سنوضح ذلك لاحقا.

2- مفهوم علم التراكيب: يعرف علم التراكيب بأنه: "عملية تنظيمية لتوليد الجمل النحوية، وصفها وتفسيرها بواسطة مجموعة من المعلومات، هو المعادل للقواعد النحوية في لغة ما"³⁰، كما يعرف أيضا بأنه: "عملية تنظيمية تضع الأصوات والمعاني في علاقة متبادلة ثم تفسيرها تفسيرا دلاليا"³¹.

²⁷ - نحو نظرية أسلوبية لسانية: فيلي سانديرس، ترجمة: خالد محمود جمعة، ط1، ص 110.

²⁸ - الأسلوب والنحو: محمد عبد الله جبر، دار الدعوة للنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، مصر، 1988م، ص 7 .

²⁹ - نفسه: ص 10 .

³⁰ - اللغة والأسلوب: عدنان بن ذريل، مراجعة وتقديم: حسن حميد، ط2، ص89.

³¹ - نفسه: الصفحة نفسها.

وظيفته :

يقوم علم التراكيب " بدراسة الكفاءة اللغوية نفسها في توليدها للجمل المختلفة في اللغة" انطلاقاً من ستة نماذج نحوية هي :

- 1- علم النحو الوصفي: وهو مجموع منظم للصيغ المتعلقة بمخططات البناء التي تميز المنطوق اللغوي .
- 2- علم النحو التفسيري: هو الذي يقوم بتفسير الجمل بعد وصفها (علم نحو المتلقي).
- 3- علم النحو التوليدي: هو الذي ينجز قواعد لبناء الجمل فتلبي متطلبات الكلام فهو علم النحو التوليدي (علم نحو الباث) .
- 4- علم النحو المعياري: وهو العلم الذي يهتم بالاستعمال الجيد، ويرفض الاستعمال الفاسد لقواعد اللغة.

علاقة علم الأسلوب بعلم التراكيب:

إن دارس الأسلوب لا ينطلق في دراسته من غير أسس، وتعد معرفته بالظواهر اللغوية ومقدرته على استقراءها أولى تلك الأسس، وأن "التراكيب النحوية أولى بأن تكون مجالاً للدرس الأسلوبي، فإن ما يقرره علم النحو من البدائل المتاحة أمام الأديب قدر غير قليل من التراكيب الصحيحة، وإن تكن متفاوتة الدرجة من حيث القبول، ويستطيع دارس الأسلوب أن يتناول تلك البدائل الصحيحة، ويعرض لما يجده شائعاً منها لدى الأديب، ويتبين مبلغ اقترابه أو ابتعاده من النمط المألوف في الاستعمال العام"³².

فمما لا شك فيه أن النحو بإمكاناته الواسعة المتجددة هو الذي يمنح كل أسلوب خصوصيته التي تربطه بنظامه ، وقد لخص اللغويون علاقات الكلم الجارية على قانون

³² - البلاغة والأسلوب: محمد عبد المطلب، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1994، ص 7 .

النحو انطلاقاً من تقسيمهم الكلم إلى اسم وفعل وحرف في ثلاثة أقسام هي : تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بحرف، وتعلق حرف بهما.

1-تعلق اسم باسم: يضم إمكانات نحوية واسعة "فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه، أو حالاً منه، أو تابعاً له: صفة أو توكيداً، أو عطف بيان، أو بدلاً أو عطفاً بحرف، أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني، أو بأن يكون الأول مضافاً إلى الثاني، أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له، أو المفعول، أو بأن يكون تمييزاً قد جلاه منتصباً عن تمام الاسم"³³

2-تعلق الاسم بالفعل: توجد في علاقة الاسم بالفعل احتمالات كثيرة "بأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً، فيكون مصدراً قد انتصب (...) أو ظرفاً مفعولاً فيه: زماناً أو مكاناً، أو مفعولاً معه أو مفعولاً له، أو بأن يكون منزلاً من الفعل منزلة المفعول، وذلك في خبر كان وأخواتها، والحال والتمييز".

3-تعلق الحرف بالاسم والفعل: فهو يوجد في ثلاثة أضرب "أحدهما أن يتوسط بين الفعل والاسم، والثاني تعلق الحرف بما يتعلق به العطف، والثالث تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام، والشرط والجزاء بما يدخل عليه"

هذه مجموع العلاقات النحوية كلها ألوان من الأداء تدخل ضمن صفات الأسلوب "فالأسلوب عند الرجل هو استغلال لإمكانات النحو الذي يقدم التصنيفات لينتقي منها الأديب ويختار، بل في بعض الأحيان تكون هذه التصنيفات من صنع الأديب ذاته، واختياره إنما ينصب على هذه الإمكانيات التي يقدمها له النظام النحوي"، ومن هذه الإمكانيات يهتم علم الأسلوب برصد بعض المتغيرات النحوية منها :

- قد تكون الجملة اسمية وقد تكون فعلية، ولكل واحدة خصائص مميزة في الاستعمال.

- قد يكون الخبر في الجملة الاسمية مفردا، أو يكون جملة اسمية أو فعلية، وقد يتقدم الخبر لغير ضرورة نحوية ، ولكل استعمال أثره الجمالي
- قد يضاف اسم الفاعل إلى مفعوله أو يعمل فيه النصب، ولكل حالة توجيه في المعنى.
- في الاستفهام قد يحتاج الأمر إلى ترتيب خاص للكلمات فيترتب عن ذلك أثرا جماليا.
- قد يذكر الضمير العائد في جملة الصلة، وقد يحذف .
- قد يتقدم المفعول به على الفاعل لمقتضيات صرفية، وقد يتقدم دون مقتضى صرفيا، وعندئذ يكون للتركيب معنى زائدا³⁴.

ومن هذه الإمكانيات النحوية الواسعة يؤثر علم الأسلوب العبارات والتركيب ذات الحمولة الجمالية "لأن بين كل عبارتين مفارقة مستمرة ترجع إلى خصوصية الإمكانيات النحوية التي استعملت في الأداء الفني"، وإن الإدراك الحقيقي لعملية الإبداع يتجاوز الوقوف عند فهم المضامين إلى تذوق الأثر الجمالي، الناتج عن تضافر إمكانيات لغوية جمّة، ومن ضمنها الإمكانيات النحوية، التي تقوم عليها علاقات تركيبية " تخلقها أدوات نحوية مألوفة، ولكن باستعمالها في كل جنس أدبي تقدم عطاء فنيا جديدا، وتثري العمل الأدبي بمفاهيم ودلالات لا تكتسب إلا عن طريق إمكانيات النحو".

³⁴ينظر: الأسلوب والنحو: محمد عبد الله جبر، سبق ذكره، ص ص 18، 19 .